

رءوف عباس.. المهاب أستاذي العزيز الراقء في «قصر العيني»

2008/06/23

سيد محمود

ليست هذه المناسبة التي يمكن لي فيها أن أعبر عن تقديري وامتناني لما فعلته بي قبل سنوات، لكن الألم في غيابك يجعل امر الاعتراف بجميلك واجباً وعاوناً لمحبة يصعب أن تغيب، أذكر حين سمعت اسمك للمرة الأولى أنه جاء مصحوباً بمهابة نادرة، كان ذلك في نهاية العام 1987 وقتها كنت علي أعتاب سنتي الجامعية الأولى أبحت عن قسم يلائم طموحي.

بعد 3 أيام فقط في قسم اللغة اليونانية نصحني شاعر التقى بي في ممر قسم اللغة العربية وبعد أن كتبت استمارة التحاق بالقسم بدخول قسم التاريخ- لأنه القسم الذي يدرس فيها رءوف عباس- " قالها ببساطة لكن اسمك يومها كان جديدا علي الأذن لكنها اعتادت عليه تدريجياً، بعد 3 سنوات من الدراسة الجامعية المنتظمة كانت كل معرفتي بالتاريخ الحديث تكاد تكون مقصوراً علي مؤلفاتك التي درستها كلها وكان تلاميذك من أساتذتي يجترونها اجترار العاشق غير أن اللقاء بك في "مدرج 78" لم يتحقق إلا في العام 1990 في سنتي الرابعة، يومها كانت أشياء كثيرة تغيرت، الكتب والأصدقاء ووصفات العلاج لكن اسمك بقي محاطاً بالمهابة ذاتها، ربما لأن تكوينك الجسماني وملامحك أضفياً عليك صفات تجعلك هناك في البعيد، بينما يمنح الحظ لمن يقترب منك صورة أخرى، ليست أبسط لكنها أكثر جمالاً، بعد أن اعتدنا عليك صار طبيعياً أن نستمع منك إلي " نكتة " أو طرفة" أو ملاحظة قاسية، لكنك كنت أشجع من أساتذتنا جميعاً، تدعونا للتمرد عليك وعلي أفكارك، تحرضنا علي المعرفة، تطلب منا أن نهجر كتبنا المدرسية بحثاً عن معرفة أخرى لا مكان لها، فالمعرفة التي كنت تحرضنا عليها كانت في كل مكان.

قلت لنا في المدرج الذي يتحول معك إلي محراب صالح للصلاة: "لا أريدكم ضحايا لأفكار تتلقونها دون نقد، لا تكونوا ناصريين أو ماركسيين أو فديين أو أخوان مسلمين بالعدوي، لكن بالعلاج تعلموا أن تتمردوا علي الجميع بشرط أن تمتلكوا القدرة علي إنتاج المعرفة بشكل ذاتي، لا تكونوا أسري لما أقول أنا أو غيري".

وقد أخذت بالنصيحة.. وفي الامتحان لم أكتب حرفاً مما كتبت في كتبك، كتبت ما رأيت أنه يعبر عني وكفأنتي بمنحني الدرجة الأعلى دون معظم زملائي المسحورين بمقولاتك.

كنت تدعيني وتقول لي كلما التقيتني في الجامعة: متي تتوقف عن الذهاب إلي الحزب "إياه" فأقول لك: عمري ما رحلت الحزب أنا من رعايا المقهي "تضحك وتدعوني مع زملائي إلي غرفتك الضيقة في القسم، أظن أنها كانت دائماً أوسع من كل قاعات الجامعة، ففيها رأيت وسمعت عن أسماء كثيرة مثل أحمد صادق سعد وسمير أمين وشارل عيسوي وصبحي وحيدة وعزت عبد الكريم ومحمد أنيس وأحمد عبد الرحيم مصطفى.

يوم أن كتبت سيرتك الذاتية التي جلبت لك الكثير من المشكلات قلت لك "مش هتعدني علي خير" فقلت لي: "ياما دقت علي الراس طبول"

بعد سنوات من العمل بعيداً عنك كنت قد تعلمت كيف أختلف معك وكيف أحترمك"

لم يغضبني نداؤك علي في كل مرة تراني فيها وتتادي: "تلميذي الذي أخذته الصحافة" فأرد "نعم يا أستاذي الذي يكره الصحافة"

يوم أن عاقبتني وانفعلت علي في التليفون بسبب موضوع عن "جويل بنين" قلت لك: "تصور أنه عاقبني أيضاً وطرديني من مكتبه لأنني تلميذك"

قلت لي " هو إنت لسه فاكّر الحكاية دي "

عاقبتني بالصمت لكني لم أنس يوما حكاية " التمرد " التي بدأتها معك فكانت درسي الحقيقي وربما الوحيد.

http://www.elbadeel.net/index.php?option=com_content&task=view&id=23254&Itemid=39